فلسفـــة الخيـــر وموقف بورتـــر منهـــا

بحث في فلسفة الخير

أعـــــداد

الدكتـــور/ فتحي محمد نبيه شعبان

مدرس بقسم الفلسفة – كلية الآداب بقنـــــا

جامعة جنوب الوادي

فلسفة الخير وموقف بورتر منهـــا
(بحث في فلسفة الخير)

مقدمـــــــة

إذا كانت بعض النظريات الأخلاقية قد فصلت بين الحق والخير فـــإن نظريـــة بورتر قد أكدت منذ البداية التناغم والتوافق بين عالم الحق وعالم الخير ، ومـــن هذا المنطلق كان اهتمامنا بدراسة بورتر .

ففي حين أخفقت نظرية اللذة وتحقيق الذات والنزعة الطبيعية فـــي التوفيـــق والتأليف بين الحق والخير نهضت أخلاق الواجب والأخلاق الدينية بهذه العلاقـــة بحيث أصبح ما هو حق تعريفاً لما هو خير بمعنى أن الحياة الخيرة تعرف بأنـــها الحياة التي يؤدى فيها الناس أفعالاً حقه .

إن أخلاقيات الواجب والأخلاقيات الدينية تعتبر داخلة ضمن مقولة النظريـــات الواجبانية التى تؤكد على فعل ما هو حق بصـــورة قاطعـــة،وتؤكـــد الأخلاقيـــات الواجبانية بأن القواعد والأفعال تكون حقه طبقاً لما تنطوي عليه مـــن خصـــائص معينة،ولهذا السبب يجب أن نقبلها بوصفها التزامات في حياتنا .

فبيرتون فريدريك بورتر المفكر الإنجليزي وعالم الأخلاق المعاصر امتد بتجلياتـــه إلى جذور مشكلة العلاقة بين ما هو حق و ما هو خير فانحاز إلـــى الأخلاقيـــات الواجبانية " الدينية والكانطية ". حيث يكون العيش باتباع ما هو حق يعد أســـمى من الأهداف التى تدعو إلى الوصول باللذة إلى الحد الأقصـــى لـــها،أو الارتفـــاع بقدراتنا أو العيش وفق الطبيعة.إذ يظهر هذا الهدف الأخير بصورة ساذجة وشديد الاستغراق في الذات،فالفعل الذي يوصف بأنه حق في أساسه ينبغي إتباعه دائمـــاً، وأن كل ما يمكن أن نقره بوصفه سلوكاً كلياً يعتبر حقاً بناء على ذلك .

وفى ضوء هذا كله فقد وضعنا هدفا لهذه الدراسة وهو كيـــف اختلفـــت نظريات الحياة الخيرة حول تصورات الخير ومفهوم السلوك الذي يعد حقاً ؟ وكيف كان تصور بورتر للعلاقة بين ما هو حق و ما هو خير ؟ ولتحقيق هذا الهدف فقد استخدمنا المنهج التحليلي التاريخي والمقارن .

ومن هنا فقد قدمت بورتر لجمهور الفلاسفة والمثقفين كمفكر فريد فـــي مكانته الفلسفية وجدير بالدراسة والبحث ، وإذا كان لبورتر فضل السبق في بيـــان التماسك والانسجام بين الحق والخير في علاقة تناغمية بينهما فأرجو أن يكون لنا فضل الإشارة والإثارة والبيان .

فإذا كنت قد أصبت فهذا فضل من الله سبحانه وتعالى ، وإن كنت قد أخطأت فمـــن نفسي و لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

دكتـــور

فتحي محمد نبيه شعبـــان

فلسفـــة الخيـــر

تتوقف فلسفة الخير فى أساسها على إتباع قواعد المعقولية من جهة . وإيجاد تفاهم وانسجام بين الحق والخير من جهة أخرى ، ومن ثـم يتعيـن علينا بحث هذين العنصرين بحثاً دقيقاً .

أولاً : قواعد المعقولية :

تتكون المعقولية من ثلاث مستويات الأول : وتنبعـث فيـه النظريـة الأخلاقية الصحيحة انبعاثا مستمراً وتزداد رفعة ورسوخاً بقدر بعدهـا عـن التناقض ، إن هذه النظرية تكتسب عظيم سلطانها أيضاً بقدر المحافظة علـى انسجامها وتطابقها مع نفسها.(١) وثاني هذه المستويات أو القواعد يتحتـم فيه على المفكر الحديث أن يلتزم بنتائج التحليل النفسي عند وضع النظريـة الأخلاقية وألا يحيد عنها بأن يضيع نفسه في ضرب من المجـردات مثلمـا فعلت الفلسفات الإغريقية بصفة عامة وخصوصاً فلسفة أفلاطون في نظريته عن الفضيلة . فالعوامل النفسية لا تعير اهتماما للعقل بل لم تعبأ بما يقـوم به غير مكترسة في ذلك بما يحدث من نتائج.(٢) والمستوى الثالث تصبـح فيه النظرية الأخلاقية أكثر دقة وتميزاً وأشد تماسـكاً مـن غيرهـا حيـن تنصرف عن كل تفسير لا تؤيده الخبرة البشرية وأن تتجـه إلـى التفسـير الأكثر احتمالا للتجربة الإنسانية ، أعنى لا توجد ضرورة للربط مثلاً بين مـا يحدث في الكون من كوارث طبيعية وأوبئة وأمراض وبين الطابع الأخلاقـي للشخص فلا سبيل للقول بأن الكون ينطوي على مبدأ القصاص بحيث يعاقب المذنبين ويثيب المستقيمين.(٣) تلك هي قواعد المعقولية التي قدمها بورتـر واعتبرها أساس تكوين الأخلاق .

إن المعقولية كما حددها بورتر تناظر تلك النزعة الأمبريقية في مجـال العلم ، والأخلاق تتألق فى العالم اللامادى ، حيث إنها تختص بأحكام القيمـة ومن ثم فلا شأن لها بالوقائع الفعلية فى العالم المادى ، وأنها تقوم علـى – التقييم والتشخيص إذن العلوم الفيزيائية والاجتماعية لا شـأن لـها بعـالم التقييم إنه مجال البحث الأخلاقـي ، والأخلاق من هذا المنطلق لا تعتد

---

(١) Porter- B.F. The good life Alternatives in ethics- Collier Macmillan publishers Lond-١٩٨٠ . P: ٣ .

(٢) Ibid P: ٤ .

(٣) Ibid PP: ٥-٦ .

أساساً بالوقائع العملية فى العالم ، لأن أحكام القيمة لا تتأسس على معلومات فعلية ، والأخلاق يمكن أن تسير إلى الوقائع عندما تستنتج متضمنات أية نظرية أو عندما تبين العلاقة بين السلوك الفعلي والسلوك المثالي ولكنها لا تستخدم الوقائع كأساس لأى نسق من القيم.(١) بهذا تختلف الأخلاق عن العلم اختلافا جذرياً ، فللعلم مجاله الخاص ، وللأخلاق مجالها المستقل تماماً عن العلم .

والأخلاق التي تنسج لها أنساقاً من القيم على أساس نتائج علم النفس أو نظرية التطور ترتكب خطأ منطقياً لاستخلاصها نتائج تقييمية من مقدمات وصفية ، وهذا ما يعرف اصطلاحا باسم (المغالطة الطبيعية) . Naturalistic Fallacy فالمنطق ينص على أن نتيجة أية حجة استنباطية سليمة لا يمكن أن تتضمن شيئاً ليس موجوداً في المقدمات ، فليست المصلحة الذاتية أو الانتخاب الطبيعي في مقدورها أن ينتجا أخلاقاً فعالة ، وباختصار تذكرنا المغالطة الطبيعية بأنه لا علاقة بين ما يفعله الناس وبين ما ينبغي عليهم أن يفعلوه.(٢) وبعبارة أخرى فإن المغالطة الطبيعية تعمل عملها داخل الأخلاق حين تخرج النظرية الأخلاقية عن قواعد المعقولية بأن تغرق نفسها في مجال العلم .

ثانياً : الحق والخير

١ - الحق :

يقول بورتر إن " الحق يشير إلى الأفعال الصحيحة أخلاقياً ، وتتمثل عادة في مصطلحات للقواعد المصنفة للسلوك ".(٣) وثمة مسألة ترتبط بمفهوم الحق وهي " الإستثناءات " exceptions . فيقرر بورتر أنه فى ضوء الإستثناءات المتعددة للمبادئ التي ترد فوراً إلى الذهن يتضح أنه من الصعب الدفاع

---

(١)Ibid PP : ٨-٩ .

(٢)Ibid PP : ٩-١٤ and Weitz – M .twentieth – Century Philosophy : the Analytic tradition – Collier – Macmillan limited , London – ١٩٦٨ PPP : ٧٩-٨٠-٨٤

(٣)Porter B.F. the good life P: ٣١

عن أى مبدأ والحكم بأنه حق . حيث توجد مشكلات تتعلق بكل قيمة يمكن تصورها.[١] في هذه النظرية سنلاحظ أن بورتر لا يريد أن يضع قيم عامة مطلقة كما فعل كانط حيث رفض هذا الأخير وجود إستثناءات للمبادئ الأخلاقية على الإطلاق .

ولقد نشأت الصعوبات التي تأتينا من الزعم بأن الإستثناءات تقلب المبادئ. غير أنه بالإشارة إلى هذه الحقيقة فإن الإستثناءات تعزز المبادئ العامة . ومن ثم فوجود إستثناءات كالأمانة والمحافظة على الحياة والحفاظ على الثقة ..... الخ فإنها لا تلغى هذه المبادئ ، ولكنها بالأحرى تعزز صحتها العامة وإذا جاءت الغلبة للحالات المعارضة على الحالات المؤيدة عندئذ سيتعين علينا بالطبع إعادة النظر في المبدأ العام ، بيد أننا لا نفعل ذلك عندما تكون الأمثلة المعارضة قليلة العدد . وبالإضافة إلى ذلك ، إذا اعتقد أن المبدأ قانون مطلق فإنه سيتعرض للهدم إن وجدت أية إستثناءات له لأن الاستثناء يضعف القوانين أما إذا نظرنا إلى المبادئ على أنها قواعد عامة أو ما يسمى باللغة الإصلاحية Prima Faci obigation(واجبات واضحة) فإنها ستدعم أحقية المبادئ العامة.[٢] من هنا يؤكد بورتر أن ميدان البحث الأخلاقي يختلف عن ميدان البحث في العلم ، فالإستثناءات في ميدان العلم تضعف القانون العلمي ، بينما الإستثناءات في ميدان الأخلاق تعزز المبدأ العام ، هذا ما استخلصه بورتر . و ما أراد أن يثبت من خلاله إخفاق الأخلاق الكانطية التي ترفض وجود حالات استثنائية.

٢ – الخير :

يقول بورتر إن " الخير يستخدم كمقابل للحق للدلالة على الأهداف الجديرة بالإتباع في الحياة والغايات المرغوبة أخلاقياً للوجود التي يتطلع البشر إليها . ويشير اللفظ إلى المعنى الأساسي الذي يوجد وراء الاختيارات الإنسانية ، والسبب الأصلي للحياة أو الموت.[٣] ، ويقول أيضاً أن " الخير ينطبق على

(١)Ibid P: ٣٢ .

(٢)Ibid PP : ٣٢-٣٣

(٣)Ibid P: ٤٤

الغايات والأهداف أو أغراض الوجود والأسباب الأساسية للعيش تبعا لاساليب معينة ومعتقدات معينة للسلوك " [1] وعند بورتر أن فلسفة الخير فلسفة شاملة تستوعب فى جوفها معاني كثيرة ومتعددة .

إنه يرى أن بعض الناس يرون فى السعادة هدفا للحياة وغاية قصوى تحفز أفعالهم . ويعتقد آخرون أن اللذة هي ما يجب السعي من أجله ، باعتبار اللذة ممثلة للناحيتين الجسمانية والحسية فى السعادة أكثر من تمثيلها للحالات الفكرية أو الروحية ، وقد ينظر إلى تحقيق الشخص لذاته كمثل أعلى أو على أنه إقتداء بالطبيعة ، أو على أنه أداء للواجب نحو الله أو البشر ، أو بمعنى البلوغ بتجربة الوجود حدها الأقصى ، فثمة إمكانات لا تعد ولا تحصى ، لا يلزم أن تجئ في صورة بدائل ، حيث أن فلسفة الخير كما يرى بورتر تستطيع التأليف والتركيب بين عدة معاني فى ذاتها ، ويشترط أن لا يستبعد أي معنى منها المعاني الأخرى .[2] وخلاصة هذا أن بورتر يسعى إلى بناء فلسفة للخير تستوعب جميع المعاني المتعارضة ، بيد أنه لم يبين كيف تقوم فلسفة الخير وكيف تترابط فيها العناصر المتنافرة ، إنه يصور لنا صراعا بين نظريات الحياة الخيرة دون أن يكون قادرا هو نفسه على حسم ذلك الصراع بأن يؤسس مذهبا شاملا يضمن مزايا هذه النظريات المتصارعة .

---

(١) Ibid P : ٢٦

(٢) Ibid P : ٤٥ .

نظريات الحياة الخيرة في الفكر القديم

تتجلى الأخلاق القديمة في ثلاث صور رئيسية هي :
نظرية تحقيق الذات ، ونظرية اللذة ، والنظرية الطبيعية " الفوقانية " إن هذه النظريات التي نبتت في العصر القديم تتسم بأنها " غارقة في الذات " [١] Self - indulgent by Comparison ولما كانت الذات هي محورها وهدفها الأساسي سواء من خلال تطوير الطبيعة الإنسانية أو من خلال العيش وفق الطبيعة فإنها أخفقت جميعا في الوصول إلى العلاقة الصحيحة بين ما هو حق وما هو خير .

وسنحاول الآن إلقاء الضوء على هذه النظريات :

أولا : نظرية تحقيق الذات في الفكر القديم (أرسطو)

إن الخير عند أرسطو هو الشيء الوحيد الذي تهدف إليه جميع الأشياء ، فالهدف الذى يشير إليه أرسطو هو الغاية القصوى لجميع الأفعال وأما الخير فيعرفه بأنه الأوديمونيا Eudaimonia وهو الوجود الحيوي الخير Well being Vital أو اكتفى بترجمتها إلى كلمة سعادة Happiness فالأوديمونيا تؤخذ على أنها الخير الأقصى (Summum high est good) bonum الذي يستطيع الإنسان بلوغه . ويعتبر أرسطو أن إتباع العقل أقصى فعل يمكن للبشرية تحقيقه ويمثل أكمل تطوير للكائن البشرى ، إنه يرى أننا إذا تأملنا الأشياء الأبدية eternal timeless بتبصر فإن هذه الفعلة ستمثل خيرا فى ذاتها.[٢] وطالما أننا نعتقد أن إدراك الحق والخطأ يعتمد على معرفة الخير الأوحد في ذاته ، وهو جوهر مفارق أو فوقانى فى وجود غير مؤثر عن طريق محددات الحوادث الخاصة والمؤقتة ، فإنه لا يمكن لنا اعتبار الأخلاق شئ آخر سوى أنها فرع من فروع الميتافيزيقا . فالفيلسوف الحق يستطيع معرفة أسباب السلوك " الحق " وعلته . [٣] فالأخلاق على هذا النحو تعتبر فرعا من فروع الميتافيزيقا .

---

(١) Porter – B.F. The good life P : ١٩٠ .

(٢) Ibid PP : ١٣١- ١٣٥ .

(٣)Guthric – W-K- The Greek Philosophers from theles to Aristotle– puplishedas a University paperback-١٩٨١– PP :١٤٩–١٥٠ .

والنتيجة التي استخلصها بورتر من خلال بحثه فى الأخلاق الأرسطية هى أن أرسطو بذل كل طاقاته فى البحث فى طبيعة الخير الأقصى للإنسان .
ومن هنا فلا شأن له بما هو " حق " حيث أن الخير عنده يتحقق حين نتأمل الأشياء الأبدية . ومن هذه الناحية يصنف بورتر نظرية أرسطو ضمن نظريات تحقيق الذات .

ثانياً : نظرية اللذة فى العصر القديم " القورينائية و الأبيقورية " :

ويقودنا بورتر بعد هذا إلى البحث عن اللذة قديماً عند القورينائيين والأبيقوريين فيرى أن الفكر القديم قد نشط فى البحث عن اللذة الفردية وبالذات فى صورتيه القورينائية والأبيقورية فاهتمت الأولى بالبحث عن اللذة الحسية بينما اهتمت الثانية بالبحث عن اللذة العقلية ، فالقورينائية تطلق طاقاتها فى السعي نحو اللذة الفيزيائية التي تمتاز بالقصر والمباشرة والفورية والشدة ، ولكنها تريدها لنفسها ، أما الأبيقورية فإنها تبحث عن السعادة العقلية التي تمتد في الحياة بكاملها ، وأن تمتاز بالسكينة ولكنها تريدها لنفسها أيضاً ، فلا القورينائية أو الأبيقورية تهتمان بأن تمتد اللذة أو السعادة إلى الآخرين . فليس هناك مجال للاهتمام بالإيثار أو الإنسانية ، إنهما لا يتبعان أية أخلاق جماعية [1] ومن هنا ينصب اهتمام القورينائية والأبيقورية حول اللذة ، واعتبار السعي الدءوب نحوها خيراً ، وشأن القورينائية والأبيقورية شأن أرسطو الذي تركز اهتمامه على الذات ، ومن ثم فلا سبيل للبحث عن التوفيق بين الحياة الخيرة والحياة الحقة .

ثالثاً : أخلاق النزعة الطبيعية فى العصر القديم (الفوقانية) :

أما النزعة الرواقية فإنها تعترف بوجود فكرة مقدسة تنتشر عبر الطبيعة وتعتبر قوة عقلانية ولذلك يمكن إدراكها من خلال عقل الإنسان . وتسمى هذه القوة باللوجس أى القوة الفعالة المقدسة العقلانية التي تشكل كل جوانب الكون فجميع المظاهر فى الكون الخارجية والداخلية كلها تعبير عن اللوجس

(١) Porter B.F. the good life P : ١٠٣ .

والقوة الروحية الكامنة ترتب جميع أحداث الطبيعة بصورة عقلانية وهادفة ومن ثم فلا شئ يحدث عبثاً أو مصادفة في هذا العالم المحفوف بالعقل المقدس . ومن ثم فإن خير الإنسان يتحقق عندما يتم التوافق بينه وبين أهدافه الكائنة . فعلينا أن نحيا في انسجام تام مع الطبيعة وأن نعمل بإتباع العقل عند انتقاء ما هو طبيعي ، ومن هنا فلا شئ يتصف بطبيعته يمكن أن يكون شراً تبعاً لأي مفهوم . [1] لهذا كله نرى أن الرواقية هي الأخرى لم تتجه إلى البحث في طبيعة ما هو حق .

نظريات الحياة الخيرة في العصر الحديث

أولاً : نظرية اللذة

تمثل اللذة تاريخياً جوهر الأخلاق في الفكر القديم عند القورينائية والأبيقورية ، و في الفكر الحديث عند بنتام ومل ، فقديماً اتخذت الأخلاق طابعاً فردياً وحديثاً اتجهت الأخلاق نحو المجتمع ، " فهذا المذهب الذي يؤكد على اللذة أو السعادة باعتبارها هدفاً للحياة يسمى مذهب اللذة Hedonism [2] ويدخل ضمن البحث في نظرية اللذة التمييز بين مذهب اللذة النفساني ومذهب اللذة الأخلاقي Psychological and ethical Hedonisum وتسفر هذه المقارنة عن وجود ثلاث نقاط رئيسية الأولى فيها تقوم على أساس وصف وتفسير السلوك الإنساني الفعلي وهذا هو الدور الحقيقي لمذهب اللذة النفساني ، والثانية تقوم على أساس النهوض بالسلوك الإنساني وتعديله وتهذيبه بحيث يتطابق مع ذلك العنصر الطبيعي في الإنسان " اللذة " والثالثة هي مغالطة الطبيعة التي تنشأ من محاولة التطابق بين السلوك الأخلاقي والسلوك الفعلي للإنسان .[3] أو بعبارة أخرى استخلاص القيم من الوقائع النفسانية . وهذا هو هدف مذهب اللذة الأخلاقي .

وبنتام – وهو فيلسوف نفعي – أسس الأخلاق على اللذة واعتبرها الخير الأقصى . يقول بنتام " إن الطبيعة قد وضعت الإنسانية تحت سيطرة سيدين مطلقين هما الألم واللذة . ولهما وحدهما تعريفنا بما نفعل ،

---

(١) Ibid PP : ١٥٢- ١٥٣ .

(٢)Porter – B.F. The good life P : ٩٢ .

(٣)Ibid PP : ٩٢ – ٩٤ .

بالإضافة إلى تقرير ما يتعين علينا القيام به .من ناحية معيار الحق والخطأ ومن ناحية أخرى سلسلة الأسباب والمؤثرات التي تكون ممكنة لسلطانها . فهما يتحكمان في كل ما نفعل ، وكل ما نقول ، وكل ما نفكر فيه ، فكل جهد يمكن أن نبذله إنما هو في سبيل التحرر من خضوعنا لهما .[١] فالخير يوجد بإتباع اللذة واجتناب الألم ، والفعل يوصف بأنه "حق" إذا حقق اللذة . ومن هنا فإن الأخلاق التي تقوم على أساس اللذة سرعان ما تنحدر إلى مصيرها المحتوم أعني المغالطة الطبيعية .

إن الأخلاق الحقيقية هي الأخلاق التي تعمل على إيجاد انسجام وتفاهم بين الحق والخير . يقول بورتر " إن ما هو حق وما هو خير بصورة مثالية يتعين وجود صلة تناغمية بينهما على أساس أن الخير يتحقق عن طريق إتباع ما هو حق".[٢] وبالنظر إلى مذهب المنفعة نجد أن الفعل يكون حقاً إذا أفاد في تحقيق السعادة ، ونظرية تحقيق السعادة تختص بتفسير اللذات ، فاللذة تكون خيرة والألم أو غياب اللذة يكون شراً . فالأفعال تعد حقه إذا حققت الخير وابتعدت عما هو شر، وبمزيد من الدقة إن الفعل الذي يعد حقا هو ذلك الفعل الذي ينبغي علينا القيام به ، إذا بدا لنا أنه يحقق مزيدا من السعادة ، أو يمنع المزيد من عدم السعادة ، أكثر من أي فعل اختياري متاح لنا [٣] . إن مشكلة الأخلاق النفعية تكمن في وجود انفصال بين مفهوم الحياة الخيرة وتصور السلوك الذي يعد حقا .

وكتب بورتر في إطار هذا الموضوع يقول " إن المذهب النفعي فيما يبدو قد قدم نظرية في الخير كثيرا ما اختلفت عن مستويات السلوك الحق . و لا ينطبق هذا الانفصال على موقف بنتام الأخلاقي وحده،وإنما أيضا على المذهب النفعي بصفة عامة . فالفعل اللاذ بقدر كبير لا يتصف بأخلاقيته ، حتى وإن استمتعت به أعدادا كثيرة ".[٤]بهذا أخفقت الأخلاق النفعية في إيجاد علاقة صحيحة بين ما هو حق و ما هو خير،وظلت غارقة في اللذة .

---

(١) Bentham – J . An introduction – Principles of Morals and legislation (London : athome press , ١٩٧٠) . P : ٩ .

(٢)Porter – B.F. The good life P : ٤٦ .

(٣)Raphael D.D Mmoral Philosophy – second enlarged edition – oxford University Press – ١٩٩٤ P : ٣٤ .

(٤)Porter B.F. The good Life P : ١٠٩ .

إن بنتام وهو الذي قال في أسلوب واضح وصريح إن كلمات مثل " يتعين " و " حق " تتضمن معنى فقط حينما تطبق على الأفعال وتكيف مع مبدأ المنفعة ، وتكون فقط مظهرا للاستثناء .وكما أقترح الأستاذ استيورت هامبشير،أن اهتمام بنتام الحقيقي هو استبدال هذه " الأخلاق " الفارغة برمتها بهندسة علمية اجتماعية ، مسترشدا على وجه الحصر بإحصاء أقصى سعادة اجتماعية . [١] إن بنتام يشرح مبداه الأساسي . يقول سيد جويك إنه " يعرض أقصى سعادة لكل المهتمين بالسؤال عن الحق والنهاية المطابقة للفعل الإنساني " ويرى مور أن بنتام يقصد بكلمة "حق" الطريق إلى السعادة العامة . ويرى البروفيسور سيد جويك أننا إذا وضعنا هاتين الجملتين معا فإننا نحصل على نتيجة لا عقلية وهي أن أعظم سعادة هي نهاية الفعل الإنساني الذى يقود إلى السعادة العامة .[٢]

إن اهتمام بنتام الرئيسي كان يتركز أساسا على السياسة ، وأن كتابه الهام في ميدان الأخلاق عنوانه " بحث في الحكومة " الذي يهتم فيه بالأخلاق ، لأنه كان يريد فقط أن يعرف ما هي منابع السلوك البشرى الذي ينبغي للمشرع أن يضعها في اعتباره لكي تحقق تشريعاته نتائج اجتماعية نافعة .[٣] إن النزعة الطبيعية باختصار فى مجال السياسة هى أن يحل علم نفس الفرد محل علم نفس شخص الدولة ، و لا يسهم كل واضع نظرية الدولة بنصيب في هذا التطور القلق ، وبنتام مع ذلك قام بهذا العمل بمعارضة وحذر كبيرين ، وفضل أن يتكلم عن " المجتمع السياسي " بدلا من " الدولة " فلم يميز المجتمع السياسي عن الحكومة المتماسكة أو عن أى هدف واضح .[٤] وخلاصة هذا أن ما كان يهدف إليه بنتام هو أن تكون الأخلاق هي طريق السياسة السليمة .

لقد بدد بورتر كل آمال الأخلاق النفعية وقوض دعائمها أيضا دون أن تكون لديه القدرة على تقديم نظرية فى الخير أشد تماسكا وأحكم منطقا من الأخلاق النفعية فبين أن الأخلاق النفعية يعوزها التوافق مع نفسها وأنها قد منيت بانتكاسة شديدة

---

(١) Aiken – H.D. – Reason and conduct – New York : alfred. A . Knopf ١٩٦٢ – P : ٥٥.

(٢)Weitz – M . Twentieth – Century Philosophy – P : ٨٢ .

(٣)دكتور : أمام عبد الفتاح إمام – فلسفة الأخلاق – دار الثقافة للنشر والتوزيع – ١٩٨٨ ص : ٢٠٢ – ٢٠٣

(٤) Nacy – Rosenblum – Bentham's Theory of modern – stste – ١٩٧٨, P: ٧٢ .

حيـن اشتقت القيم من الوقائـع . فاللـذة هي أسـاس الأخـلاق النفعيـة يستحيـل التعبيـر عنهـا بلغـة الكم ، ومن ثم فـلا سبيـل إلـى إقامـة علم أخـلاق حسابي والخطـأ الـذي وضـع بتنـام نفسـه فيـه هـو الخلط بيـن اللـذة والأخـلاق . ويؤكـد بورتـر أن بتنـام قـد انسـاق وراء مذهب اللـذة النفساني والأنانيـة النفسانيـة وانصـاع إليهمـا أيضـا . إنـه أنحـدر إلى المغالطـة الطبيعيـة ، وامتـدح أيضـا جعـل دور اللـذة يـلا مبـرر على الإطـلاق .[١] ونظـرا لأنـه لـم يتبـع قواعـد المعقوليـة فإنـه أخفق في الوصـول إلـى إيجـاد تناغـم وانسجـام بيـن تصـور الخيـر وبيـن تصـور السلوك الـذي يعتـبر حقـا ، ومن ثم فإنـه انتهى بالأخـلاق إلى المغالطـة الطبيعيـة .

أما مل . فقد نظر إلى مذهب بتنام على أنه مشـروع " هندسـي " .[٢] فمذهب اللذة عند مل لا بد أن يأخذ في الحسبان جانب الكيـف فـي اللـذة qualitiative aspeet of pleasure إذ إنه يعترف بالحاجـة إلـى التعديـل والتهذيب للمذهب النفعي ، بالرجوع إلى عامل الكيف ويرى مل أن أسـمى اللذات هي التي تختارها الأغلبية الساحقة .[٣] فالفعل الذي يوصف بأنه حق هـو الـذي تختـاره الأغلبيـة الساحقـة ، ومهمـا يكن من شئ فإنـه لا توجـد علاقـة بيـن السلوك الحـق وبيـن الفعـل الـلاذ حتـى وإن اختارتـه الصفوة أو أهـل الدرايـة . ومـل شأنـه شـأن بنتـام الـذي اشتق القيم من الوقائـع . وبإضافـة عامـل الكيف إلى الأخـلاق النفعيـة فـإن " مل " قـد تجـاوز حـدود المذهب النفعـي .[٤] وأخيـرا يلاحـظ بورتـر وجـود مفارقـة تعمل عملهـا داخـل مذهب اللـذة ، فـاللذة أو السعـادة فيـه يعبـر عنهمـا بصـورة غيـر مباشـرة ، ومن ثم تكـون اللـذة نتيجـة عابـرة تتحقق عندمـا نكمل إنجـازا إن وجـه المقارنـة يكمن في اعتبـار البحث عن السعـادة عمـدا أمـرا غـير موفـق . ويصطـدم اللـذى بمفارقـة أخـرى ، عندمـا يرى أن الدفـاع عـن السـعادة يساعد على إنقاص احتمال تحقيق الأشخاص لهـا .[٥] بهـذا يكون بورتـر قـد أستنفـد كل مـا لديـه من انتقـادات للمذهب النفعى .

---

(١)Porter – B. F . The good life PP: ١٠٨ – ١٠٩ .

(٢)Ellis– H. the dance of life– the modern library. New York– ١٩٢٩ –P : ٩٤ .

(٣) Porter – B.F. the good life P:P ١١١ .

(٤)Ibid PP : ١١٢-١١٣.

(٥)Ibid P : ١١٤ .

ثانيـــاً : نظرية تحقيق الذات

يعـرف ويبستـر مذهب تحقيق الـذات فـي معجمـه : " بأنـه النظريـة التي تقـول بـأن الخيـر الأقصى للإنسـان يتألف عـادة مـن تحقيق ذاتـه أو اكتمالهـا بافتـراض يقـول بأنـه ولـد ولـديه قـدرات معينـة تشكل ذاتـه الحقيقيـة أو المثاليـة ." وبالأحـرى يعـرف ويبستـر تحقيق الـذات بأنـه " تحقيـق إمكانـات خاصيـة واحـدة أو الشخصية من خـلال الـذات ."[1] أما بورتـر فـيرى أن العمليـات التـي تغوص في أعماق الذات الإنسانية وتنشط في تحديها بحثـاً عـن ذخائرهـا وتطويرها تسمى بتحقيق الذات . إن هذا المذهب لا يتخـذ السـعادة غايـة قصوى له وإنما هو الهدف النهائي لكل فعل اخلاقي، واكتمال قدراتنـا تعـد الهدف المثالي له . وإن القيم فيه تشتق من السعي والعمل الـدءوب نحـو تطوير إمكاناتنا ومواهبنا الفعلية وقدراتنا أيضاً تطويراً تاماً سواء بالنسـبة لطبيعتنا الإنسانية أو بالنسبة لشخصيتنا الفردية .

وحول هذه النقطة بالذات يؤكد بورتر أن الذات الإنسانية في صـيرورة دائمة وتحول مستمر لا يتوقف أبداً ، ومن ثم يستحيل علينا بلـوغ الكمـال على الإطلاق . ويؤكد أيضاً أن مذهب تحقيق الذات اضطـر للإفـلات مـن الهاوية إلى الاعتراف بأن الميول السائدة ينبغي تطويرهـا تطويـراً كـاملاً بحيث تتخذ الصدارة وتتحكم في الميول الأقل منها شأناً . ويخلـص بورتـر إلى أن تحقيق الذات ليس بالضرورة وسيلة إلى السعادة ، وإنما هـو فـي ذاته هدف نهائي للفعل ، وبهذا المعنى يسير قدماً مـع السـعادة ، ويكـون منافسـاً لمذهـب اللـذة بوصفـة نظريـة فـي الحيـاة الخيرة .[2] ويقول بورتر " إن مذهب تحقيق الذات ، بوصفة نظرية للخـير يمكن أن تختلف عما هو حق إذ لا يمكنها أن تقبح الأفعال اللاأخلاقية التـي تقود إلى تحقيق الحاجات والمصالح الأولية لشخص ما . و في كثـير مـن المواقف ، وعندما نحقق ذواتنا ، فإننا لا نتصرف بطريقة صحيحة ، ولـو أن مذهب تحقيق الذات أضطر بطبيعته إلى قبول مثل هذا السـلوك ، فإنـه عندئذ سيكون قد إرتكب نقصاً أخلاقياً فادحاً "[3] ، من هنا نلاحـظ وجـود خلل وانفصال أيضاً بين تصورات الحق والخير، فنظرية تحقيق الذات علـى هذا النحو يمكن أن تختلف عما هو حق .

---

(١) The Webter,s dictionery .

(٢) Porter – B.F. The good life , PP : ١١٧ – ١٢١ .

(٣) Ibid P: ١٢٩- ١٣٠ .

وبالرجوع إلى قواعد المعقولية اكتشف بورتر أن نظرية تحقيق الذات أخفقت في الوصول إلى المبدأ الأساسي في الأخلاق ، سواء في اهتمامها باكتمال قدراتنا أو بتحقيق الميول السائدة . فهي أولا لم تكن متوافقة مع نفسها وثانيا لم تراع الوقائع النفسانية . ففي حالة التحقيق الكامل لقدراتنا يؤكد بورتر أن كل إمكانات الطبيعة الإنسانية ليست خيرة فإلى جانب وجود الميول الخيرة توجد أيضا ميول أخرى شريرة ، وتمشيا مع النظرية فإنه إذا اعتبرت ميولنا السائدة موجبة ، فإن ميولنا الأهون شأنا ينبغي تنميتها أيضا وستشتمل هذه الميول الأخيرة ضمنا – وبالضرورة على بعض جوانب سالبة .[1] فنظرية تحقيق الذات بوصفها نظرية للخير ، يمكن أن تختلف عما هو حق . وذلك لأنها لم تتبع قواعد المعقولية .

ويقودنا بورتر إلى نقطتين أساسيتين ترتبطان تماما بنظرية تحقيق الذات ونعني بهما تحقيق الإنسانية أو تحقيق الفردية . ومن جهة تحقيق الإنسانية نجد أنه يؤكد أن الإنسان ليست له طبيعة مميزة تميزه عن سائر الخلائق . فاللغة وتذوق الفن والدين والذكاء وغير ذلك من التعريفات التي تحاول أن تفسر الطبيعة الإنسانية وتميزها عن غيرها إنما هي تعريفات يكتنفها الكثير من الغموض ، كما أنها محفوفة بالصعوبات . بيد أن الإنسان كما يرى بورتر – يتربع دائما على قمة هذه الخصائص .[2] وبهذا المعنى لن يستطيع المرء تحقيق إنسانيته طالما أنه لا يوجد تعريف محدد ودقيق ينطبق تماما على الجنس البشرى . تلك هي وجهة نظر بورتر. بيد أن هذا الموقف لا يمكن الاعتماد عليه ، فثمة تعريفات لم يشر إليها بورتر ، منها أن الإنسان يتميز بأنه " مخترع " Sapiens وليس " حكيم " Faber [3] والإنسان يتميز كذلك بأنه كائن أخلاقي .

ويمكننا أن نسمى الإنسان كائنا أخلاقيا بينما لا نسمى الحيوان كذلك ، إذ لا معنى للحديث عن قيم ومبادئ خلقية وسلوك خلقي ومسئولية وجزاء في عالم الحيوانات . يبدو أن الأخلاق مرتبطة بالاختيار ، ويقوم الاختيار على الوعي بمبادئ وقواعد يسلك الإنسان وفقا لها ، ولا ترتبط هذه القواعد والمبادئ بالغريزة والحاجة القريبة دائما ، لكن سلوك الحيوان

---

(١) Ibid P : ١٢٧.

(٢) Ibid PP : ١٢١ – ١٢٢ .

(٣) Bergson – H .L,évolution Créatrice – presse Universitatier de France , ١٩٤٨ – P : ١٤٠ .

محدود بحاجاته القريبة فقط .[1] من هذا نلاحظ أن الانسان يتميز عن غيره تميزا جذريا . وأن الحجج التى يكيلها بورتر لإثبات فساد هذه القضية لا أساس لها من الصواب .

ومن جهة الفردية اكتشف بورتر أن هوية النفس، لا تتألف من أية مظاهر فيزيائية على الإطلاق . ولكن التغيرات الفيزيائية تحدث بكل تأكيد رد فعل داخلى نحو هذه المتغيرات . وهي لا تزيد عن كونها تغيرات خارجية . وبالنسبة للعقل يرى بورتر أن أى تغير عقلي كبير بالمقارنة بأى تغير فيزيائي كبير يمكن بسهولة إدراكه كتغير في الهوية . ومع هذا فهناك صعوبات قد تتولد عن تفسير النفس على هذا النحو ، فعلى سبيل المثال أننا إذا استأصلنا العقل من جسد شخص ما ، فسيصعب التعرف عليه والحكم بأنه نفس .

"A disembodied mind Cannot be identified as a self"

فإذا كان العقل وحده ليس كافيا لتكوين النفس . و ليس الجسم شيئا أساسيا للنفس ، فإنه لن يتسنى لنا تعريف الفردية . و يرى بورتر أنه لاشيء له طبيعة عقلية أو فيزيائية من المقومات التي تجعل الشخص يحتفظ بهويته طيلة حياته. وعلى الرغم من استمرار أعضاء جسمنا فى أداء نفس وظائفها طوال حياتنا ، إلا أن تكوينها يتعرض للتغير . وتصاب قدراتنا الذهنية بتحولات مماثلة تؤثر في جميع مكونات أفكارنا وميولنا .

فإذا كان الشخص يتغير في جميع جوانبه فمعني هذا لا يظل نفس الشخص، ولكنه يمثل منظومة من مختلف النفوس في أزمنة شتى ، ويترتب على ذلك ألا يكون الأشخاص مسئولين عن نفوسهم السالفة ، و لن تكون نفوسهم ملزمة بالوفاء بالعهد مستقبلا. [2] وخلاصة هذا أنه لا يوجد تعريف محدد و دقيق للفردية، فالتغيرات الفيزيائية أو العقلية أو الاعتماد على شيء ثابت ليست من المقومات التي تنطبق علي الفردية .

ثالثا : أخلاق النزعة الطبيعية

يرى بورتر في بحثه عن أخلاقيات النزعة الطبيعية أنها تتخذ ثلاث صور رئيسية أولا: أنها من الناحية الفيزيائية العيش وفق الطبيعة وإشباع احتياجاتنا الأساسية بسبل أولية بسيطة ، ويمثل هذه النظرة الطبيعية هنرى

---

(١) دكتور : محمود فهمى زيدان : فى النفس والجسد – بحث فى الفلسفة المعاصرة – دار الجامعات المصرية ١٩٧٧ ص : ص ٢١ – ٢٢ .

(٢)Porter – B.F . The good life PP : ١٢٢ – ١٢٥ .

ديفد سورو وبعض الشعراء الرومانتيكيين فى القرن التاسع عشر والحركة المعاصرة (العودة إلى الطبيعة) . وثانياً : إتباع الروح السامية فى الطبيعة والاهتداء إلى طابعها الفطرى وقوانينها ، وسبلها ، وتمثل هذه النظرة النزعة الفوقانية الأمريكية ، والنزعة الفوقانية فى روما القديمة . وثالثاً : معاونة التطور الطبيعي للحياة بوصفه قد تقدم وانتشر عبر التاريخ البيولوجي ، وعدم معارضة سيره الديناميكي ونزوعه ، وانطلاقه نحو وجود أعظم . فتميز المذهب النشوئي بهذا التفسير الأخير وكذلك إلى حد ما – النزعة الهيجلية .(١)

وبالنسبة للحياة الطبيعية يبدو أن الحضارة فى روعتها وعظيم سلطانها وما أوتيت من قوة لم تستطع أن تسكت صوت الطبيعة نهائياً ، وإن الطبيعة تفرض سحرها علينا دائماً . وأولئك الذين هموا بالدفاع عنها ، ركزوا كل جهودهم حول القيم المتصلة بتلك الحياة الطبيعية . ووجدوا فى الحياة الريفية ملاذاً لهم حيث كل شئ طبيعي فى المأكل والمشرب وجمال الطبيعة وصفاء الجو و نقائه . ورأى هؤلاء أيضاً أن الاستمتاع بالطبيعة وهدوئها وراحة البال أفضل بكثير من الاطلاع على الكتب العلمية (٢) و لا نريد أن نسترسل إلى أبعد من ذلك فى سرد الحجج التى يكيلها أنصار حركة مسايرة الطبيعة .

إن حركة مسايرة الطبيعة باهتمامها بالقيم المتصلة بالطبيعة لم تستطع أن تفلت من مصيرها المحتوم أعنى الاندفاع إلى المغالطة الطبيعية . إن هذا النوع من الأخلاقيات الطبيعية لم يستطع أن يوجد انسجاماً وتناغماً بين مفهوم الحياة الخيرة والسلوك الذى يعد حقاً .

ويدخل فى إطار أخلاقيات النزعة الطبيعية البحث في طبيعة النزعة الفوقانية ، يرى بورتر أن النزعة الفوقانية "Transcendentalism" ممثلة في أميرسون ترى أن القانون الطبيعى يوجد في جوف الطبيعة . ولكى ندرك الأعمال الباطنة للكون ، فإننا نحتاج إلى الإدراك الحدسى لأنه يقودنا وراء الظواهر الطبيعية الظاهرة . فالتأمل النسقى أو الاكتشافات العلمية يمكنها أن تقيم حججاً على دراستنا للوقائع الحاضرة لأن الطبيعة بكاملها تمثل مجازاً العقل الإنسانى وفى الإنسان توجد روح الكل . وبالإضافة إلى تفتح عقولنا فى داخل روح الطبيعة وخارجها ، فإن علينا أيضاً واجب تصحيح الظلم الموجه للإنسان فى المجتمع المدنى ، فالجرائم

---

(١) Ibid : P : ١٤١ .

(٢) Ibid P : ١٤٤ .

الموجهة للإنسانية هي خطايا ضد الطبيعة فالإنسان والطبيعة شئ واحد ، ويمكننا أن نثق فى أحكامنا وأن نقيم ممارسات اجتماعية لأن ضميرنا يضرب بجذوره في القانون الطبيعى .(١)

إن هذه النزعة الفوقانية هى الأخرى كانت فريسة للمغالطة الطبيعية ، لأنها لم تحسب حسابا لقواعد المعقولية ، وهى أيضا شأنها شأن غيرها من الأخلاقيات الطبيعية الأخرى لم تفلح فى التأليف والتوفيق بين الحق والخير .

وأخر نوع من أنواع الأخلاقيات الطبيعية هى محاولة داروين وسبنسر . يرى بورتر أن الداروينية قد استخلصت أخلاقها مباشرة من العالم الطبيعي ففي جوف الطبيعة وفى مجاهل الغابة حيث الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح وجدت الدارونية صور القانون الأخلاقي فنسجت على أساس قانون الغاب أنساقا من القيم. وفى هذا يرى بورتر أن نظرية التطور النشوئي قد اهتمت بتقديم نموذج واضح للسلوك الإنساني . ورأت مبادئ السلوك التي ينبغي أن تهيمن على المعاملات الإنسانية على أنها مظهر للطبيعة من خلال قانون البقاء للأصلح ، وتتجلى الغاية الكلية للحياة في اندفاع الطبيعة نحو الوجود الدائم فى أشكال أكثر تطورا وارتقاءا ، فأى شئ يحافظ على بقاء صور الحياة الأكثر تعقيدا والأفضل تكاملا يوصف بالخير ، وما يعوق التطور النشوئي يعتبر شرا ، ولو تركنا قانون الغاب يعمل عمله بأن يبقى الأصلح وحده ، فإن سلوكنا عندئذ يكون صوابا لأن الاتجاه الرئيسى للنشوء يكون قد حقق الهدف منه ، ولكن لو تدخلنا فى مسار النشوء بمعاونة الأضعف على البقاء ، فإن سلوكنا عندئذ يكون من الناحية الأخلاقية خاطئا وبلسان حال النشونية فإن إتباع سبل الطبيعة تعنى محاكاة الحياة الإنسانية لعمل القوانين الطبيعية وكذلك ضرورة تحقيق التقدم النشوئى المتواصل .(٢)

وفى إحدى رسائله إلى والس انتقد داروين التجارب الباستينية واعتبرها مجتمعة غير ممكنة وحيث سمح بتصحيح فكرة الأركبيوسيس ، فإنه أعلن أن الجيل التلقائي ليس له أساس . فتبعا لداروين فإن الحياة لابد أن تنشأ بطريقة ما ، ولكن كيف حدث هذا وظل مجهولا . (٣)

ترتبط نظرية النشوء بالأخلاق بطريقتين مختلفتين : أولهما تكون الأخلاق نتيجة لعملية النشوء . ثانيهما : أن النشوء يمكن أن يزود

---

(١) Ibid PP : ١٥١ – ١٥٢ .

(٢) Ibid PP : ١٦٧ – ١٦٨ .

(٣)Oparin – A . I . the orign of life – New York – ١٩٥٣ - P: ٤٥ .

الأخلاق بالتوجيه العملي. فالافتراض الأول : هو أن قدرتنا الأخلاقية " وخذ الضمير " وأفكارنا الأخلاقية تشتق من العمليات التي تلعب دورا في العمليات العامة للنشوء وفي نهاية المطاف تشبه العمليات العامة للنشوء عن طريق " وخذ الضمير " ويعني قدرة الكائنات البشرية على إصدار أحكام أخلاقية يمكن إذن أن تبعث على الفعل . والافتراض الثاني : المتصل بالأخلاق والنشوء، وهو باختصار أن دراسة النشوء يمكن أن توجه من أجل الأخلاق ، إن هذا الاقتراح لا مكان له في أعمال داروين ، ولكن الأفكار التي تحرز تقدما شديدا في أي ميدان للاستعلام تعد تجربة للآخرين وغالبا فإن الخطوة الأولى في التأمل الفلسفي ، ونظرية داروين في النشوء تصدران عن الفلسفات الأخلاقية والميتافيزيقية . (١) أما اسبنسر فشأنه شأن غيره من التطوريين كما يرى بورتر ، إنه اهتم بكل تأكيد بإطالة أمد الجنس البشري ، والإبقاء على معيشة الأفراد . ويرى أن البقاء شرط ضروري وبدونه تصبح جميع القيم الأخرى أمرا مستحيلا . إنه يشدد على " روح الحياة " Breadth of life " وامتلاكها ويخصها بمكانة فريدة باعتبارها قيمة سامية وهدفا للتطور .واعتقد بأن روح الحياة الهائلة تنزع إلى زيادة طول العمر. لم يكن يقصد اسبنسر بروح الحياة مجرد الوجود الأكثر تعقيدا أو تنوعا وإنما الوجود الأخلاقي أيضا الذي يأخذ في حسبانه التطور الملائم للجنس ، ورأى أن التطور يتجه نحو امتلاء الحياة التي تنطوي على الاهتمام برفاهية الآخرين . وطبقا لاسبنسر فإن خط التطور لا يقود إلى الفردية الأنانية ، وإنما إلى التعاون والجماعة وهما أساسيان لبقاء الكائنات الإنسانية وإشباع احتياجاتها الفردية والجماعية .

وثمة نقطة نود الإشارة إليها وهي اقتران مذهب النشوء بمذهب اللذة فاسبنسر لم يوافق على اتباع اللذة في ذاتها ولكن دافع عن الأفعال التي تقود إلى التطور النشوئي الأسمى وتلك هي السعادة مصحوبة باللذة . فاللذة دائما نتيجة وليست هدفا نهائيا .

ثمة موازاة هامة بين تهذيب اسبنسر لأخلاق التطور في مصطلح روح الحياة وبين إضافة جون ستيوارت مل اعتبارات الكيف لمذهب اللذة . وبذلك يكون كل من مل واسبنسر قد حاولا كل منهما بطريقته الخاصة رفع مستوى النظرية الأخلاقية التي تمسكا بها وحاولا العلو بها حتى تصلح مثلا أعلى للحياة الإنسانية ، حيث اختار الاثنان الكيف ووضعاه فوق الكم باعتباره العامل الأهم في الوجود .(٢)

---

(١)Rephael. D.D . Moral Philosophy – PP : ١١٥ – ١٢١ – ١٢٢ .

(٢)Porter B.F. – the good life – PP : ١٧١ – ١٧٤ .

وبمناسبة الكلام عن الأخلاق التطورية أعلن بورتر أن النزعة الهيجلية يمكن – إلى حد ما – أن تنتمي إلى هذا النوع من الأخلاقيات الطبيعية .[١]

ومن هذا المنطلق ينبغي علينا أن نميز بين النزعة الهيجلية في صورتها التطورية وبين نزعة داروين واسبنسر. فنظرية التطور عند هيجل تتدرج في نظام منطقي من الصور الدنيا إلى الصورة العليا . وكل مرحلة من مراحل الطبيعة تعقب الأخرى في نظام منطقي .بينما التطور عند داروين واقعة تحدث في الزمان[٢].إذن يتجلى الفارق الجوهري بين هذين الموقفين في أن النزعة الهيجلية تقيم التطور على أساس عقلي ، بينما التطور أو النشوء عند داروين واسبنسر يقوم على أساس زمني .

لقد انتهى بورتر إلى وجود سمة مشتركة في أخلاق السعادة وأخلاقيات النزعة الطبيعية وهى المغالطة الطبيعية . فإلى نفس المصير الذي هوت إليه الأخلاق النفعية اندفعت إليه أيضا الأخلاقيات الطبيعية ، وبدلا من البحث عن المبدأ الأخلاقي الصحيح اشتقت هذه الأخلاقيات القيم من الوقائع . فأولا أخفقت حركة موافقة الطبيعة حين تصورت أن كل ما تجود به الطبيعة خير ونسيت أن الطبيعة قوة مدمرة بلا حدود . وثانيا : إن كل النظريات الطبيعية ارتكبت خطأ طبيعيا جسيما عندما تحدثت عن الأخلاق ، إذ أنها أكدت على أن السلوك الذي يطابق واقعة طبيعية معينة يكون حقاً ، سواء أعلن أن هذه الحقيقة ذات طابع حتمي مسبق للأحداث ، أو العمليات التطورية وما شابه ذلك . فالظاهر كما يرى بورتر أنه لابد من النظر إلى ما وراء الطبيعة ، لو أننا أردنا الحصول على قاعدة صحيحة تؤسس الأحكام الأخلاقية . [٣] تلك هي وجهه نظر بوتر فى نظريات الحياة الخيرة ، وعلينا الآن أن ننظر معه فى طبيعة الأخلاقيات الواجبانية .

النظرية الواجبانية والنظرية الوجودية

الواجب :

اكتشف بورتر فى النظريات التي بحثها حتى الآن وجود تباين وتصدع بين تصور الخير ومفهوم السلوك الذي يعتبر حقاً ، ففي حين أخفقت نظرية اللذة وتحقيق الذات والنزعة الطبيعية في التوفيق والتأليف بين الحق والخير نهضت أخلاق الواجب والأخلاق الدينية بهذه العلاقة بحيث أصبح ما

(١)Ibid P : ١٤١ .

(٢)State– W.T. the philosophy of Hegel– New York–١٩٥٥– P:٣١٣ .

(٣)Porter B.F. the good life - P٢ : ١٧٦ – ١٧٧ .

هو حق تعريفا لما هو خير بمعنى أن الحياة الخيرة تعرف بأنها الحياة التي يؤدى فيها الناس أفعالا حقه .

ويرى بورتر أن أخلاقيات الواجب والأخلاقيات الدينية تعتبر داخلة ضمن مقولة النظريات الواجبانية التي تؤكد على فعل ما هو حق بصورة قاطعة لأنه حق. تؤكد الأخلاقيات الواجبانية بأن القواعد والأفعال تكون حقه طبقا لما تنطوي عليه من خصائص معينة ، ولهذا السبب يجب أن نقبلها بوصفها التزامات فى حياتنا .

ويميز بورتر بين الفعل الواجبانى والقاعدة الواجبانية فيقرر أن نظرية الفعل الواجبانى تذعم بأن تأمل المواقف الجزئية سيطلعنا على أحكام ذلك الفعل الذى يناسب زمانا ومكانا بالذات . ومع هذا فليس ثمة قواعد عامة يمكن الرجوع إليها فى تحديد كيف يكون مسلكنا ، وينظر إلى كل موقف على أنه متفرد ومتميز عن غيره . بينما تحتفظ واجبانية القاعدة دائما بما كانت الصدارة للمبادئ العامة على الأحكام الجزئية وتعرفنا أى الأفعال تناسب ظروفا معينة فلابد أن ننتقل من العام إلى الخاص ، وأن نستخلص التزاماتنا فى الأحوال المختلفة من القواعد العريضة للسلوك التي تغطيها .[١] وخلاصة هذا أن مشكلة نظريات الحياة الخيرة إنما تكمن فى التباين والانفصال بين ما هو حق وما هو خير . بينما نهضت واجبانية القاعدة وواجبانية الفعل بهذه العلاقة .

أولا : نظريات الواجب نحو الإنسان (كانط) :

وحول الأخلاق عند كانط بصفة عامة فى كتابه " أسس ميتافيزيقا الأخلاق " بالذات كتب كانط " ليس ثمة شئ يمكن تصوره في العالم يمكن أن يطلق عليه خيرا بلا قيد ما عدا الإرادة الخيرة . " [٢]

De tout ce qu'il est possible de concevoir dans la monde, et même en général hors du monde , il n'est rien qui puisse sans restriction être tenu pour bon, si ce n'est seulement une BONNE VOLONTR .

وبتحليل نص كانط نرى أن بورتر أنتهي إلى التشديد على أن الأخلاق عند كانط توجد فى إطار النزعة المقصدية وليست النزعة الغائية . [٣]

---

(١) Ibid PP : ١٧٩-١٨١.

(٢)Kant , Fondements de la metaphysique des Moeurs Paris , ١٩٥٧, P:٨٧ .

وقد ترجمه دكتور / عبد الغفار مكاوى

(٣) Porter – B.F. The Good Life P : ١٨١ .

ويرى بورتر ان كانط قد دافع عن اتجاه العيش المناسب الذي يؤدى من خلاله أفعالاً يمكن أن تندرج تحت قاعدة كلية للسلوك . فالفعل لا يوصف بأنه حق لأنه يقود إلى نتائج خيرة ، أو لأنه يتبع بواعث أخلاقية . فالإرادة الخيرة وحدها هي التي تستحق المدح ، ويعنى ذلك العمل بعد الاحترام المجرد للقانون الأخلاقي . وينبغى علينا أن نعامل الناس أساساً كغايات وليس كوسائل ، وعلاوة على ذلك يتعين علينا أن نتأكد أن سلوكنا يخضع لمبادئ يمكن الدفاع عنها من أجل البشرية برمتها بصفة قاطعة ،وبلا شرط[1] إذن دافع كانط عن القواعد التي توصف بالكلية ، هذا ما أكد عليه بورتر وما استخلصه من " أسس ميتافيزيقا الأخلاق " لكانط .

ويلاحظ دوبرنيل أن كانط لا يعطى صفة الطابع الأخلاقي الإلزامي إلا للقواعد التي تفرض نفسها على الأقل بوصفها كلية ، أي لا تقبل أى استثناء . لكن يلاحظ أن كل القواعد – أيا كانت – يمكن ، أو بالأحرى : يجب أن تصاغ على شكل قاعدة كلية : ويكفى أن ندخل الاستثناءات التي نريدها فى داخل الصيغة نفسها . فمثلاً القاعدة : " أنت لا تستطيع أن تتخلص بنفسك من حياتك " تصير " فيما عدا الحالة التي فيها يكون الدافع هو الاهتمام بإنقاذ حياة شخص آخر ، فإنك لا تستطيع أن تتخلص بنفسك من حياتك . وقد أعترف كانط نفسه بوجاهة هذا الاستثناء . كذلك يمكن أن نصوغ قواعد على النحو التالى :فيما عدا الحالة التى يكون فيها الحياة عاراً ، فإنك لا تستطيع أن تتخلص بنفسك من حياتك.[2] إذن فالقواعد المطلقة عند كانط لا تقبل الاستثناء .

إن المبادئ الأخلاقية عند كانط كما يصورها بورتر تندرج في نظام هرمي ويعلوها جميعاً مبدأ المحافظة على الحياة البشرية فهو المبدأ الأخلاقي الأساسي ويليه مبدأ قول الصدق بيد أن بورتر يرفض هذه النظرة ويقرر أن المواقف هي التى تحدد تفوق مبدأ بالذات على غيره من المبادئ الأخرى ، فأحياناً يعلو مبدأ قول الصدق على مبدأ المحافظة على الحياة البشرية . وفى مواقف أخرى يكون العكس وقد يأتى مبدأ آخر ويتخذ الصدارة . إذن فطبيعة الموقف هى التى تحدد المبدأ الأسمى . إن هذا الترتيب الهرمى عند كانط يعبر عن التعارض والصراع بين المبادئ الأخلاقية وعلى هذا النحو يستحيل وضع نظام هرمى محدد

---

(١)Ibid P : ١٨٦ .

(٢)عبد الرحمن بدوى – الأخلاق النظرية– وكالة المطبوعات – ١٩٧٥–ص:٢٩ .

ودقيق للقيم . وينتقد بورتر مسألة وجود مبدأ أخلاقى يمكن تطبيقه بلا استثناء ليس ثمة قواعد يمكن العثور عليها توصف بالكلية . فكل قاعدة يندرج تحتها مجموعة معينة من الحالات – قد تكون أغلبية – ولكن لا يجوز اعتبار أية قاعدة منها صالحة أو قابلة للتطبيق في كل الظروف . [1] تلك هي بعض الانتقادات التى وجهها بورتر للأخلاق عند كانط .

ويقودنا بورتر إلى مسألة الحق والخير فيقول " إن الفعل الذى يتميز بأحقيته فى صميمه يجب أن يتبع دوماً ، وأن كل ما باستطاعتنا إقراره كمسلك كلى يعتبر حقاً بناء على ذلك ويبدو أى معيار سلوكى من هذا القبيل معقولاً ويتوافق ومفهومنا للأخلاق . فالعيش وفقاً لما هو حق يبدو أسمى من الأهداف التى تدعو إلى البلوغ باللذة حدها الأقصى . أو إنماء قدراتنا ، أو العيش المساير للطبيعة . إذ يكاد الهدف الأخير بالمقارنة يظهر بمظهر تافه وشديد الاستغراق فى الذات " . [2] ومن هنا نلاحظ أن الواجبانية لم تفصل بين مفهوم الحق وتصورات الخير ، فهذه العلاقة قائمة فى الأخلاقيات الواجبانية ، و هذا ما أكدت عليه الأخلاق عند كانط ، والأخلاق الدينية ، بيد أن الأمر على خلاف ذلك فى نظريات الحياة الخيرة . فالعيش باتباع ما هو حق يبدو أرقى وأفضل من الأهداف التى تقود إلى الاستغراق الشديد فى الذات .

ثانياً : الواجب نحو الله (الأخلاقيات الدينية) :

تتجلى الصلة والعلاقة بين الحق والخير واضحة فى الأخلاقيات الدينية . ففى الأخلاقيات الكانطية – كما يرى بورتر – يتألف واجبنا من إتباع أنماط معينة من السلوك لأننا ندرك أنها توصف باتباعها للحق والموضوعية . وفى الأخلاقيات الدينية إننا مطالبون بأداء الأفعال التى تتخذ طابع الإرادة الإلهية ، وتتصف النظريتان بالواجبانية لأنهما تؤكدان خصائص معينة فى السلوك تفرض علينا الإلزام الأخلاقى ، وانهما تنكران إرجاع أخلاقية الأفعال إلى نتائجها . ويؤكد بورتر أن الأخلاقيات الكانطية والأخلاقيات الدينية تعدان مثلين لواجبانية (القاعدة) لأنهما تعتبران المبادئ والقواعد هى التى تتصف بالحق فى صميمها . وينظر إلى الحركة

---

(١) Porter – B.F . The good life P : ١٨٧ .

(٢) Ibid P : ١٩٠ .

اللاهوتية الحديثة العهد لأخلاقيات المواقف على أنها استثناء ، لأنها تتأرجح بين واجبانية (الفعل) والغائية فى أكمل أحوالها .

وتعد هذه الأخلاقيات تبعاً لعلماء " اللاهوت المعاصرين " أخلاقيات مواقف " بمعنى ان تطبيق أى مبدأ بالذات أو أيه قيمة يتوقف على الموقف أو السياق . وعلى النقيض من كانط ، فإن أخلاقيات المواقف لا تشجب بالضرورة الانتحار أو الكذب طالما أن الظروف قد تقتضيها والإخلاص والأمانة والشرف وحتى الحياة ذاتها ربما تتعرض للفقدان من أجل غاية أخلاقية عملية خيرة . فليس ثمة مبدأ أخلاقي يكون حقاً للممارسة بصورة كلية ولكن كل مبدأ يكتسب مصداقيته في إطار سياق محدد يجعله صالحاً للاستخدام ويجعله شرعياً . (١)

ثالثا : النظرية الوجودية

تعبر الوجودية عن نفسها في تحديها للنظرية الفلسفية وثورتها على الأنساق الفلسفية التي يشتق منها تصور الإنسان ووظيفته في النسق الكلى للأشياء ، وتنحاز إلى الوجود الكثيف المشخص ، إنها تنطلق أساسا من المنظور الشخصي العيني للكائن البشرى الواقعي الذي يتمثل أمامي . وفى هذه اللحظة الحالية(الآن) . إن الأفكار في الوجودية انعكاس لواقع فيزيائي ، والعالم الفيزيائي ليس شبحا أو نسخة مشوهة لنسق الأفكار . وينبغى أن ننطلق من تجربتنا فى الوجود كما تتمثل هي ذاتها لوعينا وألا نعتبر أنفسنا مشاهدين منعزلين يدركون الحياة من نقطة موضوعية خارج نطاق الحياة ذاتها وبمجرد أن نصبح على وعى بأنفسنا بوصفنا كائنات موجودة فإننا ندرك وجود حالات سيكولوجية معينة ذات دلاله فلسفية لأنها مغروسة في الحالة الإنسانية . وهذه الحالات قد ضخمت في الفكر الوجودي ومن أمثلتها القلق والهلع واليأس والاغتراب وما شابه ذلك . إن هذه المشاعر تحمل على الاشمئزاز والعذاب . وهى لا يمكن الفرار منها لأنها تمثل جانبا من حال الإنسان على الأرض ذلك الإنسان التعس والمنعم بوعيه فهي فلا يمكن استئصالها وإنما التغلب على تأثيراتها الضعيفة ، وبهذا المعنى فإنها توظف كحوافز تبعث على حيوية الناس و فرويد ، واعتقد الوجوديون أيضا أن المشاعر هي الوسيط الذي تتم من خلاله الاتصالات الإنسانية الأساسية . فمن خلالها نتبادل فهم كل منا للآخر ، ونعبر عما يسبب لنا الذعر وعن آمالنا العميقة . ومن خلال المشاعر ، نغرق أنفسنا في جوف طبيعة كل تجربة ونـدرك بصورة حدسية مهاربنا داخل ذواتنا (٢) تلك هي طبيعة النظرية الوجودية والتي أكد بورتر علي أهميتها لأنها تؤكد علي معنى الوجود الإنساني بوصفه أحد مقومات الحياة الخيرة .

---

(١)Ibid PP: ١٩٣ – ٢٠٣ .

(٢)Ibid PP : ١٩٣ – ٢٠٣ .

نتائـــج البحث

وفى ضوء هدف هذا البحث وهو كيف اختلفـــت نظريـــات الحيـــاة الخيرة حول تصورات الخير و مفهوم السلوك الذي يعد حقا ؟ فقـــد انتـــهت هذه الدراسة إلى النتائـــج الآتية : -

أولا : إن الأخلاق الحقيقية هي الأخلاق التي تعمل على إيجاد انســـجام و تفاهم بين الحق و الخير . ففي حين أخفقت نظرية اللذة وتحقيـــق الذات و النزعة الطبيعية في التوفيق والتأليف بين الحق والخـــير ، نهضت أخلاق الواجب والأخلاق الدينية بهذه العلاقة بحيث أصبـــح ما هو حق تعريفا لما هو خير، ومن هنا فإن الحياة الخيرة تعـرف بأنها الحياة التى يؤدى فيها الناس أفعالا حقه.

ثانيا : إن العيش وفقا لما هو حق يبدو أسمى من الأهداف التي تدعو إلـى البلوغ باللذة حدها الأقصى.أو إنماء قدراتنا ، أو العيـــش المســـاير للطبيعة .إذ يكاد الهدف الأخير بالمقارنة يظهر بمظهر تافه و شـديد الاستغراق في الذات . فالفعل الذى يوصف بأنه حق فـــي صميمـــه يجب أن يتبع دائما ،وإن كل ما يمكن أن نقرره كسلوك كلي يعتبـــر "حقا " بناء علـــى ذلـــك ، و يبدو أى معيار سلوكى من هذا القبيـــل معقولا و يتوافق و مفهومنا للأخـــلاق .

ثالثا : إن الأخلاق النفعية أخفقت في إيجاد علاقة صحيحة بين ما هو "حق " و ما هو " خير " . و تنحصر مشكلة هذه الأخلاق النفعيـــة فـــي وجود انفصال بين مفهوم الحياة الخيرة وتصور السلوك الذي يعـــد حقا . إن الأخلاق النفعية يعوزها التوافق مع نفسها وأنها قد منيـــت بانتكاسة شديدة حين اشتقت القيم من الوقائع ." فاللذة " هي أساس الأخلاق النفعية يستحيل التعبير عنها بلغة الكم . و من ثم فلا سبيل إلي إقامة علم أخلاق حسابى و الخطأ الذي وضع بنتام نفسه فيـــه هو الخلط بين اللذة و الأخلاق. ومل شأنه شأن بنتام الذي اشـــتق القيم من الوقائع . وبإضافة عامل الكيف إلى الأخلاق النفعية فـــإن "مل " قد تجاوز حدود المذهب النفعى .

رابعا : أما نظرية تحقيق الذات فإنها تختلف عما هو حق. لأنها لـــم تتبـــع قواعد المعقولية. فنظرية تحقيق الذات على هذا النحو لا يمكنها أن تقبح الأفعال اللاأخلاقية التى تقود إلى تحقيق الحاجات والمصالح الأولية لشخص ما. وفي كثير من المواقف ، وعندما نحقق ذواتنا لا نتصـــرف بطريقة صحيحة، ولو إن مذهب تحقيق الذات اضطر بطبيعته إلى قبـــول مثل هذا السلوك، فإنه عندئذ سيكون قد ارتكب نقصا أخلاقيا فادحا.

خامسا : توجد سمة مشتركة فى أخلاق السعادة وأخلاقيات النزعة الطبيعية وهى " المغالطة الطبيعية " فإلى نفس المصير الذى هوت إليه الأخلاق النفعية اندفعت إليه أيضا الأخلاقيات الطبيعية ، وبدلا من البحث عن المبدأ الأخلاقى الصحيح اشتقت هذه الأخلاقيات القيم من الوقائع . فأولا أخفقت حركة موافقة الطبيعة حين تصورت أن كل ما تجود به الطبيعة خير وأغفلت أن الطبيعة قوة مدمرة بلا حدود ،وثانيا إن كل النظريات الطبيعية ارتكبت خطأ طبيعيا جسيما عندما تحدثت عن الأخلاق ، إذ أنها أكدت على أن السلوك الذى يطابق واقعة طبيعية معينة يكون " حقا " ، سواء أعلن أن هذه الحقيقة ذات طابع حتمى مسبق للأحداث ، أو العمليات التطورية وغير ذلك .

سادسا : إن النظريات الواجبانية " أخلاقيات الواجب " و " الأخلاقيات الدينية " تؤكد على فعل ما هو حق بصورة قاطعة لأنه حق . كما تؤكد الأخلاقيات الواجبانية بأن القواعد والأفعال تكون حقه طبقا لما تنطوى عليه من خصائص معينة ،ولهذا السبب فيجب أن نقبلها بوصفها التزامات فى حياتنا.

سابعا : إذا كانت الأخلاقيات الواجبانية قد نجحت فى التوفيق والتأليف بين ما هو حق وما هو خير، فإن الواجبانية الكانطية فى ميدان الأخلاق قد أخفقت هى الأخرى فى الوصول إلى المبدأ الأخلاقى الحقيقى،حين تصورت أن المبادئ الأخلاقية تتدرج فى نظام هرمى ويعلوها جميعا مبدأ المحافظة على الحياة البشرية فهو المبدأ الأخلاقى الأساسى ويليه مبدأ قول الصدق . فالمواقف هى التى تحدد تفوق مبدأ بالذات على غيره من المبادئ الأخرى ،فأحيانا يعلو مبدأ قول الصدق على مبدأ المحافظة على الحياة البشرية.وفى مواقف أخرى يكون العكس وقد يأتى مبدأ آخر ويتخذ الصدارة.إذن فطبيعة الموقف هى التى تحدد المبدأ الأسمى .إن هذا الترتيب الهرمى عند كانط يعبر عن التعارض والصراع بين المبادئ الأخلاقية وعلى هذا النحو يستحيل وضع نظام هرمى محدد ودقيق للقيم . إنه ليس ثمة قواعد يمكن العثور عليها توصف بالكلية . فكل قاعدة يندرج تحتها مجموعة معينة من الحالات-قد تكون أغلبية-ولكن لا يجوز اعتبار أية قاعدة منها صالحة أو قابلة للتطبيق فى كل الظروف .

ثامناً : تتجلى الصلة والعلاقة بين الحق والخير واضحة فى الأخلاقيات الدينية . ففى الأخلاقيات الكانطية ، يتألف واجبنا من اتباع أنماط معينة من السلوك لأننا ندرك أنها توصف باتباعها للحق والموضوعية . وفى الأخلاقيات الدينية إننا مطالبون بأداء الأفعال التى تتخذ طابع الإرادة الإلهية . وتتصف النظريتان بالواجبانية لأنهما تؤكدان خصائص معينة فى السلوك تفرض علينا الإلزام الأخلاقى .

قائمـــة المراجـــع الأجنبيـــة

١- Porter – B.F. The good life Alternatives in ethics – collier Macmillan publishers Lond - ١٩٨٠ .
٢- Aiken – H.D. Reason and conduct - New York : alfred. A. Knopf – ١٩٦٢ .
٣- Bentham – J. An introduction – principles of Morals and Legislation (Lonon : athome press, ١٩٧٠) .
٤- Bergson – H. L. evolution creatrice, press universits de france, ١٩٤٨ .
٥- Ellis – H. The donce of life – the Modern library. New York – ١٩٢٩ .
٦- Guthrie – W. K. The Greek philosophers from theles to Aristotle – puplishedas a university paperback – ١٩٨١ .
٧- Kant, Fondements de la metaphysique des moeurs, paris, ١٩٥٧ .
٨- Nacy – Rosenblum – Bentham's theory of the modern- state- ١٩٧٨ .
٩- Oparin – A. I. – The orgin of Life – New York – ١٩٥٣ .
١٠- Raphael – D.D. – Moral philosophy – second, enlarged- edition – Oxford University press – ١٩٩٤
١١- Stace – W.T. The philosophy of Hegel New York – ١٩٥٥.
١٢- The Webter's dictionery.
١٣- Weitz – M. Twentieth – Century philosophy: the analytic tradition – collier – Mac millan limited, London, ١٩٦٨.

قائمـــة المراجـــع العربيـــة

١- دكتور : إمـــام عبد الفتـــاح إمام - فلسفة الأخلاق - دار الثقافـــة للنشر والتوزيع - ١٩٨٨ .
٢- دكتور : محمود فهمي زيـــدان - في النفس والجســـد - بحث في الفلسفة المعاصرة - دار الجامعات المصرية ١٩٧٧ .
٣- دكتور: عبد الرحمن بدوى - الأخلاق النظرية -وكالة المطبوعات - ١٩٧٥.